نوبل للآداب 2011

أدونيس مقدّماً صديقه ترانسترومر: حضور في أحضان الكون

ترانسترومر

ادونيس

إذا كانت الصورة «فجر الكلام»، كما يقول باشلار، فإننا نجد هذا الفجر في شعر توماس ترانسترومر. ولئن كان التعبير الحي يرتبط بالقدرة على إبداع الصور، فإننا نجد كذلك في هذا الشعر مثالاً فريداً عن هذا التعبير.

-١-

إذا كانت الصورة «فجر الكلام»، كما يقول باشلار، فإننا نجد هذا الفجر في شعر توماس ترانسترومر. ولئن كان التعبير الحي يرتبط بالقدرة على إبداع الصور، فإننا نجد كذلك في هذا الشعر مثالاً فريداً عن هذا التعبير.

- ٢ -

المجاز مقترناً بالإيجاز، والحداثة، موصولةً بالكلاسيكية، والغريب، نابعاً من الأليف: تلك هي ثنائيات في شعر توماس ترانسترومر، أعدها مفاتيح أساسية للدخول إلى عالمه الشعري، وللإحاطة به، فقلما اجتمع الإيجاز والمجاز عند شاعر كما يجتمعان عنده. وقلما نرى هذا الاقتران العضوي بين التأصل في الصرامة الكلاسيكية، والانفتاح الأصيل على لغة الحداثة، رؤيةً وكتابةً، كما نرى في شعره. وفي هذا كله، يبدو الأليف غريباً كأنه يخلق للمرة الأولى. ويبدو الغريب أليفاً، كما لو أنه يولد أمام أعيننا، وبين أحضاننا.

- ٣ -

الطبيعة، الجذر، الشجر، العشب، البحر، الغيم، المطر، الثلج، الحجر، الطير... الخ، أشياء الحياة اليومية، من أبسطها إلى أكثرها تعقيداً، الأشياء التي أدى العلم والتقنية إلى ابتكارها واستخدامها: هذه كلها، هي مادة الشاعر - إضافة إلى عوالم الأنا الداخلية، عوالم الشعور والمخيلة، القلق والبحث والتساؤل.

يختبر هذا كله، يعيد النظر فيه، ويمنحه شكلاً آخر ومعنىً آخر. بحس زمني تمتزج فيه الأزمنة، ويمتزج فيه الواقع بالمخيّلة. وبحس تاريخي، أفقي وعمودي، وبنبرة تبدو كأنها إيقاع اللحظات التي نعيشها يومياً.

- ٤ -

يتبطن الحس الشعري عند ترانسترومر حساً علمياً. فيما نقرؤه، نكتشف أن العلم في شعره نوعٌ من الجمالية اللامرئية، تواكب خفيةً جمالية الشعر المرئية. وفيما نقرؤه في حركيته المجازية، نتبين كيف أن الواقع يبدو كأنه ليس هو الذي «يخلق» الشعر، بل إن الشعر هو الذي «يخلق» الواقع. ويتجلى لنا كيف أن الواقع لا يبدو إلا متحركاً، كأنما هو حالات متتابعة، كما لو أنه يتكون في رؤية متحولة خيالية مجازية. ويخيل إلينا أن اللغة - المجاز، أو اللغة - الصورة، هي، في آن، بيت الواقع، وبيت الإنسان، وبيت العالم. وأن اللغة نفسها «تواقة للتغيير». وفقاً لتعبير ميرلو بونتي. وأن المجاز ليس مجرد خرق للعادة، وإنما هو كذلك خرقٌ للنظام القائم، نظّام العلاقات بين اللغة والأشياء.

يمكن القول، في هذا المنظور، إن شعر ترانسترومر قراءةٌ «علميةٌ» لشعرية العالم أو «لروحه» وقراءةٌ شعرية لعلمية العالم، أو «لمادته». وهي قراءة تتم على الحد الذي يفصل ويجمع في آن: الأشياء التي يتعذر التعبير عنها من جهة، ولا يمكن الصمت عنها من جهة ثانية، كما يعبر، أي بين القول المستحيل والصمت المستحيل.

في هذا كله، لا يفارقنا الشعور بأن الشعر والعلم غير قادرين على «إدخال» الشيء في الكلمة. فلا يدخل في الكلمة غير الظاهر، والعرضي العابر. أما «الجوهر» فيظل عصياً وغامضاً. ومن هنا أهمية الحساسية «الصوفية» الخفية في شعره. من هنا كذلك، نفهم الحس الذي تقوم عليه جملته الشعرية: الكثافة والشفافة في آن.

- ٥ -

للقصيدة عند توماس ترانسترومر حضورٌ واقعيٌ يُلمس فيه نبض الأشياء بتفاصيلها، ومجازي يتحول فيه الواقع إلى مخيلة. كل قصيدة لوحة: ظاهرها مركبٌ مضيءٌ من جزيئات الحياة اليومية، وباطنها إشعاعات وإشارات وتخيلات.

إنه حضورٌ يضع القارئ مباشرة في أحضان الكون. الكون مصغرٌ واقعيٌ في جسد القصيدة، أو هو نفس مبثوث فيها. إنه حضور يجعل القارئ حاضراً هو كذلك، داخل ذاته، وفي الكون.

وليس هذا مجرد حضور فكري. انه كذلك وقبله، حضورٌ جمالي، تُفصحُ عنه العلاقات المفاجئة التي يقيمها بين الكلمة والكلمة، وبين الكلمة والواقع، والتي تبث في القصيدة الحيوية والإشعاع. هكذا نشعر بأن المسافة التي تفصل الذاتية عن الشيء، أو التي تصل بينهما، هي نفسها المسافة التي يتعانق فيها الأنا والآخر، بطريقة تتحول فيها هذه المسافة نفسها إلى معانقةٍ تغيب فيها الحدود والمسافات.

- ٦ -

يبدو الواقع الكوني في شعر ترانسترومر مرتبطاً بحياته اليومية، حاضراً في تجربته الكتابية والجمالية. ومع أن القضايا التي يلامسها أو يثيرها في شعره غير تجريدية، بل واقعية، فإنها منفصلة، جذرياً، عن ابتذالية الالتزام السياسي الإيديولوجي. إنها مأخوذةٌ بواقعية الإنسان في كينونته. والبشر في هذه القضايا هم بشر الحياة اليومية. لا يتزينون بالسياسة، ولا يزينونها. لا يرفعون بيارق النضال، ولا يهزجون لأساطيره. إنهم بشر البيوت والشوارع. بشرُ العمل، والتأمل، والعزلة. بشر الوجود بآلامه كلها، وعذاباته كلها، وأفراحه كلها. ونسغ التساؤل والحيرة والقلق متدفقٌ في شعره. ذلك أن النظر إلى واقع العالم، وواقع البشر لا يمكن، إذا كان عميقاً وحقيقياً إلا أن يجري فيه هذا النسغ المأساوي أو التراجيدي.

وإذ عرف توماس ترانسترومر كيف يصون شعره من الابتذال السياسي - الإيديولوجي، فلأنه كان يدرك أن الشعر يفقد أعمق ما فيه عندما تصبح الغاية منه إيصاله أو نقله إلى الجمهور. فعندما يختلط أو يتوحد الشعر بالحدثي العابر، أو عندما يتحول المُبتذل إلى وسيلة لتسليط الضوء على الشعر ومنحه الشهرة، فإن الشعر هو نفسه يصبح مبتذلاً. الشعر نفسه هو الضوء، وهو في ذاته الإضاءة. وهو، إذاً، يحتاجُ بالأحرى، إلى الظل، ويحتاج، خصوصاً، إلى الإقامة في الليل، ليل الحاسة، والمادة، واللامرئي. ولا يعني هذا، في أية حال، انفصاله عن الحياة، وانسلاخه من قدرته على التأثير في التاريخ. وإنما يعني، على العكس، انفصاله عن السائد، فكراً وعملاً، خصوصاً أن العمل، اليوم، يُمليه ويحركه فكر زائف يتمثل في الإعلام والدعاية، وأن التاريخ السائد مجرد أحداثٍ عابرة، بفعل وسائل الإعلام ذاتها.

- ٧ -

يحاول ترانسترومر أن يقول في شعره وضعه الإنساني، وأن يقدم هذا الشعر بوصفه فناً يُفصح عن هذا الوضع. ولئن كانت جذوره الشعرية منغرسة في أرض الشعر، في أصوله الكلاسيكية والغنائية والرمزية، فإنه في الوقت نفسه ينخرط في حركية الحداثة، واقفاً على عتبة المستقبل. وهو في ذلك لا يُصنف، ولا يؤسس في مدرسة. انه، في آن، واحدٌ ومتعددٌ. وفي هذا ما يتيح لنا أن نرى في شعره كيف أن المرئي واللامرئي تركيبٌ واحدٌ تنبعث منه ذات الشاعر، كأنها عطرٌ يفوحُ من وردة العالم.

× المقدمة التي كتبها أدونيس لترجمة الأعمال الشعرية الكاملة لتوماس ترانسترومر الصادرة عام ٢٠٠٥ عن دار بدايات في دمشق ترجمة قاسم حمادي.

سيـرة

ولد توماس ترانسترومر في الخامس عشر من نيسان (ابريل) ١٩٣١ في العاصمة السويدية استوكهولم، وهو النجل الوحيد للصحافي والمصور يوستا، والمدرّسة هلمي ترانسترومر. انفصل والداه وهو طفل. وترعرع في كنف والدته في منطقة سودور وسط استوكهولم ضمن بيئة اجتماعية تنتمي إلى الطبقة الوسطى بالقرب من سكن جده لوالدته، كارل هلمر فستربرغ البحار، الذي يقول عنه توماس انه كان «من أفضل أصدقائي»، فقد كان الأب الروحي لتوماس. وكان يتقن اللغة السويدية الفصحى التي تركت أثراً كبيراً في أشعار توماس. كان رفاقه في المدرسة يحرصون على عدم المساس بمشاعره كونه «بلا أب» فوالد توماس كان يلتقيه مرة كل عام، في ليلة عيد الميلاد. باكراً أبدى توماس عشقه الشعر والموسيقى وبدأ خلال دراسته في ثانوية سودرا لاتين الشهيرة كتابة الشعر.

لم يكن في يوم من الأيام متديناً ولكنه في الثالثة والعشرين من العمر باشر دراسة تاريخ الأديان وتاريخ الأدب وعلم النفس في جامعة استوكهولم التي تخرج فيها سنة ١٩٥٦.

وفي مطلع ١٩٦٠ عمل طبيباً نفسانياً في سجن روكستونا للقاصرين واستمر في المهنة ذاتها عند انتقال العائلة سنة ١٩٦٥ إلى مدينة فستروس حيث توظف في معهد سوق العمل. في الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠ أصيب توماس بشلل نصفي بسبب جلطة دماغية أفقدته القدرة على النطق. ولكن هذه الأزمة لم تمنعه من الاستمرار في كتابة الشعر بل تغلب عليها وأصدر عدة أعمال شعرية. حاز توماس العشرات من الجوائز الأدبية العالمية.

ترانستومر: اتخذت قراراً بألاّ يكون الشعر يوماً مصدر رزقي

ترانسترومر: فوزي بالجائزة أنهى سنوات طويلة من التخمين

حاوره عباس بيضون

[كان توماس ترانسترومر على كرسي عادي في مقهى وسط المدينة، أما على كرسيه ذي العجلات فكانت تجلس زوجته، لم يكن هناك أبسط من ذلك ليبدو كل شيء عادياً، ليبدو كرسي ترانسترومر، الذي هو قفصه، ومرضه بالتالي مألوفين تماما بل غير ملحوظين في ساحة البرلمان وتحت شمس الربيع، ترانسترومر الذي رأيت صورته لأول مرة في رسالة بالأنترنت من عدنان الصائغ الشاعر العراقي الذي يعيش في الكويت كان مختلفاً عنها، لم يكن على وجهه الإعياء الذي على الصورة ولا الغربة التي بدت عليها وسط المحتفلين به في السويد. كان وجهه مرتاحا بل وفتياً كأن العجز أعاده جزئياً إلى نوع من الاستسلام الطفولي للحياة والأشياء، أكاد أقول إن العائلة كانت سعيدة في هذا المكان، كان على الطاولة بعض النقل والبيرة، العائلة حول الطاولة في عدم انتظام وكأنها في بيكنيك، توماس يتناول حبة فستق ويضعها في فمه، الابنة تذهب وتعود وجنب ترانسترومر المرأة التي هي الآن كل عالمه تقريباً. جميلة وقوية وحاضرة بقامتها الكبيرة وأناقتها وصوتها، كانت جنب ترانسترومر وعند يمينه وهو في كنفها وديعا وصامتا ومطمئنا. كانت هذه صورته لكن صوته ولغته وجزءاً من ذاكرته في هذه المرأة التي لا يتحرك إلا عبرها. كون الاثنين لغة لهما وحدهما.، أسأل بالعربية، يترجم قاسم حمادي <<مترجم ترانسترومر>> إلى السويدية، تلتقط السيدة ترانسترومر الكلام من حمادي تنقله إلى توماس الذي يتكلم بأصوات غير مفهومة وحركات يسلم زوجته الجواب الذي تفكه إلى سويدية ينقلها حمادي إلى العربية. إنها عملية تشبه الأواني المستطرقة، مغامرة صغيرة تتحقق في عدة مراحل للوصول إلى الهدف المحبوس في غرفة مغلقة، لاستخراج هذا الرصد المحروس في صمت ترانسترومر الذي شلته جلطة دماغية وأفقدته صوته. عملية طويلة نسبيا وتحتاج إلى كثيرين للحصول على هذا الكلام الذي قد يكون أيضا غير مقروء أو ممحو أو محيّر.

في ما يأتي الحديث مع ترانسترومر الذي سبق ذكر " عملياته ":

× شعرك مليء بالمخلوقات والنباتات والمعالم، إنه شعر بيئة، نوع من كتاب طبيعيات شعري. هكذا أرى علاقتك بالطبيعة فأنت من الشعراء الحداثيين النادرين الذين هم شعراء طبيعة؟

- السويد بشكل عام دولة حضارية والدين الكلاسيكي أي الكنيسة لا يلعب دوراً كبيراً في حياة المواطنين. لذا يتوجه السويديون، بدلاً من الدين، إلى الطبيعة في بعض الأحيان... إلا أنهم لا يتوجهون إلى الطبيعة فقط لأجل الدين.

أنا نشأت مع والدتي ولم يكن والدي موجوداً... وأجدادي لجهة والدتي كانوا بحارة، البحارة يسكنون الجزر عادة. وأذكر جزيرة <<رونماره>> التي كنت أزورها وأقضي صيفياتي فيها وأنا بعدُ صغير.

تلك الصيفيات تركت أثراً كبيراً في نفسي... فالطبيعة هناك كانت لا تزال عذراء.

اعتاد البحارة الانطلاق من اليابسة إلى الجزر، علماً بأن الأخيرة كانت قريبة من الأرض التي كانوا يسكنونها.

وبالعودة إلى الصيفيات التي قضيتها في <<رونماره>>، فهي لم تثر عندي حب اكتشاف الطبيعة لجهة الشعر والمشاعر. أنا كنت أرغب في أن أصبح باحثاً بيئياً... باحثاً علمياً في الطبيعة والحشرات والنبات إلخ...

هوايتي الأولى كانت التقاط الحشرات... الفراشات وغيرها. وعندما بدأت أجول في الجزيرة وألتقط الفراشات، ولدت لديّ هواية اكتشاف الجزيرة جغرافياً أو معرفة حدودها. ورحت أدرس كتب الجغرافيا... فأنا أردت أن أعرف أين تقع إفريقيا والقارات الأخرى، وكذلك تلك الجزيرة الصغيرة.

بدأت أرسم الخرائط عن طريق الخيال، إذا صحّ القول. فصرت أقول لنفسي: هذه الجزيرة التي أعيش فيها والتي تبلغ مساحتها خمسة كيلومترات مضروبة بخمسة كيلومترات هي إفريقيا... كانت هذه الطريقة أسلوبي في دراسة الجغرافيا العالمية. وبدأت حينها أقتنع بأن عليّ أن أصبح باحثاً علمياً وعالمياً حول الطبيعة والجغرافيا.

هكذا كان لقائي الأول مع الطبيعة... عبر جمع الحشرات واكتشاف الجزيرة. بعدها بدأ يظهر اهتمامي بالموسيقى.

× تتكلّم كثيراً عن الموسيقى في شعرك...؟

- عندما كنت أتابع دراستي الثانوية في استوكهلم، كنت في صفّ يهتمّ غالبية طلابه بالأدب. ومنذ ذلك الحين بدأت أقرأ شعر السورياليين الفرنسيين. في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمري بدأت أقرأ الشعر وأكتبه.

عندما رحت أكتب الشعر قرّرت الاستمرار في ذلك حتى أصبح في ما بعد شاعراً، على أن تبقى الموسيقى هواية. فأنا كنت أشعر بأن العلاقة تكون أسهل وتعطي فرحاً أكبر عندما يكون المرء هاوياً للموسيقى أكثر منه موسيقياً محترفاً.

× أي من الشعراء السورياليين كنت تقرأ في تلك الفترة؟

- على الرغم من أن ترجمة تلك الأشعار، في ذلك الوقت، لم تكن دقيقة جداً، إلا أنها كانت بنسبة جيدة لأنها تركت أثراً في نفسي. أيضاً، قرأت لغير السورياليين الفرنسيين، قرأت <<إليوت>> وشعر أميركا اللاتينية.

كنت في الثالثة والعشرين من عمري عندما أصدرت كتاب شعري الأول وقد أسميته <<١٧ قصيدة>>. وبعد هذا الإصدار، اتخذت قراراً بتحرير الشعر من كونه مصدر رزق لي... لكثرة المحبة التي أكنها له. ورحت أبحث عن شيء أتعلّمه لأكسب عيشي ولتبقى كتابة الشعر لمجرّد الشعر. توجّهت إلى علم النفس حيث استمررت لغاية عام ١٩٩٠ حين منيت بانتكاستي الصحية.

× في شعرك أحداث وأسماء... نلاحظ أن <<رينو إيغو>> يتكلم عن شعر ترانسترومر وعلاقاته بنظريات الفيزياء... يذكر نظريتين كبيرتين ويجد معادلاً شعرياً لهما عندك. أحببت هذه المقابلة ووجدتها واعية وجدية. هل من فيزياء في شعرك؟ وإلى أي مدى يرتبط شعرك بالعلم؟ شعرك ليس فيه أوهام. إنه شعر لا يعلّق أملاً على أي وهم. شعر لا يؤكد شيئاً ولا يحوي يقينيات. هناك حذر من قول أي شيء نهائي... حذر من خلق أي خلاص أو أي أوهام. ليس عندك أي شيء ديني يعلّق المرء عليه أمله... ليس هناك من أمور نهائية ولا حتى خلاص، على الرغم من ذلك هناك أمل. من أين يأتي هذا الأمل؟ لا يوجد إيمان لكن الأمل موجود... ؟

- صحيح. من يقرأ شعري لا يجد فيه ديناً ولا إيماناً. فأنا نشأت في بيئة لم يكن للدين فيها دور مؤثّر. لكن القاعدة الأساسية للإيمان غير المرئي عملياً موجودة عندي... مثلاً الأمل...

× لا يوجد إيمان لا في السياسة ولا في الدين ولا في العلم ولا في التاريخ. لا إيمان...

- في أعماقي، هناك دائماً اعتقاد قوي بأن جميع الأمور تنتهي بطريقة خيّرة وبسعادة. لذا آتي بالأمل لي ولأشعاري. لا يأس عندي... هكذا أعيش حياتي. اكتسبت الأمان الداخلي خلال الفترة التي عشتها مع جدّي لوالدتي الذي كان بحاراً. فهو كان يقود السفن بين الجزر الصغيرة وفي المضيقات الضيقة... وكان هذا أمر محفوفاً بالمخاطر. أكسبتني هذه التجربة شيئاً غير مرئي خلق عندي نوعاً من الأمان الذي طبع أشعاري التي كانت تنمو ببطء. كنت أكتشف فيها الأمل وأترجمه كلاماً.

في أعماقي، هناك دائماً اعتقاد قوي بأن جميع الأمور تنتهي بطريقة خيّرة وبسعادة. لذا آتي بالأمل لي ولأشعاري. لا يأس عندي... هكذا أعيش حياتي

×××

كان لقائي الأول مع الطبيعة... عبر جمع الحشرات واكتشاف الجزيرة. بعدها بدأ يظهر اهتمامي بالموسيقى

× كتبت شعراً وكتبت نثراً كذلك. متى الشعر ومتى النثر؟

- ساعة يأتي الوحي يظهر إذا ما كانت الكتابة شعراً أم نثراً. عندها أتبين إذا كان من الأفضل أن تأتي هذه الكتابة نثراً أو نظماً.

في أشعاري، تتكلّم دائماً عن أشياء غير مقروءة... رسائل غير مقروءة... طبيعة غير مقروءة... وكأن الشعر ليس لتوضيح الأشياء ولا لقراءتها بل لإنشاء سرّ في مقابلها... سرّ آخر مقابلها...

× عندما تقرأ آخر ما كتبته <<اللغز الكبير>> تحصل على جواب يفيد بأن أشعاري ليست أجوبة على قضايا معيّنة... هي ألغاز مقابل أسئلة. هناك دائماً العالم المجهول. في شعرك تحاول رفض ونقض مفهوم الأنا. تحاول تدمير الأنا إذ أنها دائماً مفتوحة على الخارج... الأنا دائماً تحت أنظار الآخرين، على الرغم من ذلك فإن شعرك سيرة... ؟

- الأنا غير واضحة... هذا صحيح. لكن كلّ أشعاري هي سيرة ذاتية... مباشرة كانت أو غير مباشرة. وأبرز دليل أشعار <<الهايكو>> التي أتت بعد عام ١٩٩٠. بعد أن أصابني المرض. أصررت على أن أضمّ هذه الأشعار إلى قصائدي الأخرى، ولا أحتفظ بها لنفسي. اتّخذت قراراً بتقديمها إلى العامة على الرغم من أنها أشعار خاصة جداً... بي وبالمرض الذي أصابني. هي سيرة ذاتية على الرغم من عدم وضوح ذلك.

× أودّ أن أبدي مجرّد ملاحظة... فعلى الرغم من تكريس حياتك للشعر إلا أن إنتاجك غير كبير؟...

- يتساءل الجميع لماذا إنتاجي محدود.؟ وكثيرون هم الذين يعتقدون بأن هذا الكتاب هو كل ما أنتجته... لكن هذا غير صحيح. فهناك مسودات أكثر بعشرات المرات مما هو منشور... لكنني لم أصدرها لأنني أشعر بأنها غير مكتملة. هي مسوّدات. وإذا لم تكتمل القصيدة فمن غير الممكن أن أنشرها. وهذا أمر يعود إلى التحرّر من كون الشعر مصدر لقمة عيشي.

هذا جزء من حوار طويل أجراه الشاعر عباس بيضون مع ترانستومر ونشر عام ٢٠٠٦ على موقع جبهة الشعر.

رينفيلد: فوز "ترانسترومر" دافعا للاهتمام العالمي بالأدب السويدي

صرح رئيس وزراء السويد فريدريك رينفيلد، في تعليقه على فوز الشاعر السويدي توماس ترانسترومر بجائزة نوبل للآداب هذا العام، "أنه فخور وسعيد جدا بهذا الخبر، ويأمل أن يكون ذلك دافع للاهتمام العالمي بالأدب السويدي"، وذلك وفقا لما نشرته صحيفة نيويورك تايمز.

من جهة أخرى "أنا تيلجلين" المتحدثة الرسمية لدار النشر "بونيير" التي نشرت مجموعة من أعمال "ترانسترومر" هذا العام احتفالا بعيد ميلاده الثمانين، "أن هذا يعد أسعد يوم للكثير من العاملين بالدار"، مشيرة إلى أنهم انتظروا هذا الخبر كثيرا حتى أوشكوا أن يفقدوا الأمل في حصوله على نوبل".